الفصل العاشر

... ونسقط نظام ناصر

فى اجتماع الوزارة نفسه، وحسب يوميات شاريت عن بن جوريون:

«حاول أن يثبت أن آمال مصر فى السيطرة على أفريقيا، غربًا إلى المغرب وجنوبًا إلى جنوب إفريقيا، حيث سيستيقظ السود، يومًا ما، ويذبحون مليونى أبيض ثم يسلمون أنفسهم إلى سلطة مصر الأخلاقية... ناصر، [قال] قد لا يرد على احتلال قطاع غزة لأن نظامه يقوم على أساس الجيش فحسب، وإن حاول الرد عسكريا فسوف يهزم ونظامه سوف يسقط. من المحتمل ألا تتوجه الدول العربية لمساعدة ناصر على كل حال. وأخيرًا، القوى الغربية لن تتدخل... عسكريًا. إنجلترا لن تغزو النقب ـ (وإن قامت بذلك، فسوف نحاربها ونلقى بها الى الخارج بعد إلحاق العار بها...) إن قوتنا تكمن فى فرض الواقع ـ تلك هى الوسيلة الوحيدة لنا لأن

نصبح عاملاً سياسيًا يؤخذ فى الاعتبار. ذلك هو التوقيت المناسب، لأن العالم العربى منقسم، ومصر لم توقع بعد اتفاقية مع الولايات المتحدة ولا انجلترا (نفس ما سبق)».

إن منع التحالف بين الغرب والعالم العربى، خاصة مع أهم دولة عربية ـ مصر ـ كان (وكان يجب أن يبقى) أهم هدف لإسرائيل. ذلك لم يكن له أى علاقة بأمن إسرائيل. بالعكس، كانت سياسة بن جوريون موجهة إلى منع الولايات المتحدة من فرض الضمانات على الدولة الصهيونية... مثل تلك الضمانات ستقتضى، بالضرورة، تحقيق الحد الأدنى من الاتفاق بين إسرائيل والعالم العربى (ترسيم الحدود، حل مشكلة اللاجئين الفلسطينيين من أجل «إنقاذ ماء الوجه»). أعلن الهدف الأساسى أيضًا بشكل واضح: استخدام القوة كان «الطريق الوحيد» أمام إسرائيل لان تصبح قوة مهيمنة فى المنطقة، مع إمكانية أن تكون فى تحالف مع الغرب. يجب إقصاء ناصر ليس لأن نظامه يمثل خطرًا على إسرائيل، ولكن لأن التحالف بين الغرب وزعامته ذات المكانة العالية، فى العالم الثالث وفى الشرق الأوسط، سوف تقود بالضرورة إلى اتفاق سلام، الذى من ناحيته سوف يؤدى لأن تصبح الدولة الإسرائيلية دولة نسبية ومجرد مجتمع قومى من بين مجتمعات المنطقة الأخرى.

كان من المعروف لدى الإسرائيليين فى ذلك الوقت، أن نظام ناصر لم يكن يمثل أى تهديد لوجود إسرائيل. كتب شاريت يقول:

«لقد أعربت عن شكوكى فيما يخص نمو قوة مصر العسكرية [والتى قامت إسرائيل بالدعاية لها بشدة] بعد أن رأيت فى هذا العام، أن كل طاقات الجيش [المصرى]، تم استيعابها فى الصراعات الداخلية وبين الخصوم... نحو ٥٠٠ ضابط، من بين الأفضل فى الجيش المصرى، تركوا الخدمة العسكرية [بعد أن حل ناصر محل نجيب]، وذهبوا إلى أعمال إدارية وأنشطة سياسية». (٣٠ مارس ١٩٥٥).

لكن لم يكن الحملة التى شنتها إسرائيل حول العالم علاقة على الإطلاق بالوقائع الحقيقية:

أعلن بن جوريون [فى اجتماع الوزارة] أن ناصر هو أخطر عدو لإسرائيل، وأنه يخطط لتدميرها... ليس واضحًا من أين أتى بتلك الثقة التى [تسمح له] بأن يعبِّر [عن ذلك] بشكل قاطع وحاسم، وكأنها مسألة استندت إلى وقائع قوية». (٢٤ أبريل ١٩٥٥).

لقد كانت موجهة ببساطة من أجل تعبئة الرأى العام العالمى ضد مصر، والإعداد لأرضية موالية للعدوان العسكرى الإسرائيلى الوشيك. رغم ذلك، فى الوقت نفسه، تلقى المسئولون الإسرائيليون تعليمات بضرورة إقناع الحكومات الغربية بأن عدم استقرار النظام الناصرى يجعله لا يستحق المساعدات والمساندة الغربية. ومثلما يفعلون، دائمًا، عندما يريدون أن تبرر الوسيلة الهدف، لم يكن حكام إسرائيل مهتمين على الإطلاق بالتناقض بين حملاتهم الآنية. من أجل إثبات ضعف ناصر، استدعوا شهادات من مصريين:

«جدعون رفائيل... كتب عن... اجتماع مثير مع أحد كبار الرأسماليين المصريين، عبود باشا... تبين أن عبود كان صديقًا مقربا من ناصر. ويبدو أنه حافظ وقوَّى مكانته فى ظل النظام الجديد الذى يعتبر عدوا للرأسمالية... بناء على قول عبود، فإن وضع عبد الناصر غير مستقر داخل صفوفه نفسها. فهو متوتر بصفة مستديمة، ولا يعرف من يرضى أولاً. زعامة المجموعة منقسمة والصراعات تفجرت بين الضباط، كل منهم يعتمد على مساندة سلاح مختلف من الجيش ـ السلاح الجوى والبحرى والقوات البرية. الوضع غير مستقر، على الإطلاق، ومن الصعب معرفة ما الذى سيحدث». (٣١ يوليه ١٩٥٥، ١١٠٠).

كما كانت هناك محاولات جديدة للتخريب:

«جلست مع جوش بالمون . . . للاستماع إلى تقرير عن استمرار المفاوضات مع زعماء حزب الأمة السودانى . . . أحدهم سوف يزور إسرائيل، قريبًا. هناك احتمالات أخرى لتنمية الاتصالات التجارية بيننا وبينهم. من الضرورى أن تفصل السودان نفسها عن التبعية الاقتصادية لمصر، ومن مجال تأثيرها.

«إننا نعمل على الحفاظ على الاتصالات مع أعضاء الوفد [الحزب الليبرالى الوطنى المناهض لناصر] الذين يعيشون فى المنفى فى لندن». (٣ اكتوبر ١٩٥٥)

بدت إدارة أيزنهاور منقسمة. العناصر الموالية للعرب فى وزارة الخارجية، بناء على قول شاريت، كانوا لا يزالون يضغطون من أجل إقامة تحالف غربى ـ عربى فى الشرق الأوسط، واعتبر أن اتفاقية بين واشنطن والقاهرة ضرورية لأمن واستقرار المنطقة، وذلك حسب كلمات وزير خارجية إسرائيل. ولكن الضغوط الإسرائيلية كانت تأتى بثمارها بسرعة. فبعد سنوات من الاتصالات والمفاوضات، تقلصت المطالب المصرية لصفقة أسلحة دفاعية، إلى مجرد هدية شخصية إلى اللواء نجيب فى شكل مسدس مزخرف لحمله فى المناسبات، وهو ما كشف عنه محمد حسنين هيكل فيما بعد، وذلك بينما كان العدوان العسكرى الإسرائيلى يزداد فى قوته من يوم ليوم. لم تكن هناك مساعدات اقتصادية تصل مصر من الغرب. وتلاشى التزام جون فوستر دالاس بمساعدة مصر فى بناء السد العالى. لقد تعرضت القاهرة للإهانة، بينما لم تؤد اعتذارات الغرب الشفهية، بعد الهجوم الإسرائيلى المدمر ضد غزة، إلى التأثير بأى شكل، على استعدادات إسرائيل لحرب شاملة. قدم بن جوريون خطابًا عامًا فى ٨ أغسطس، حيث انتقد سياسة شاريت، على أساس إنها تهدف لإرضاء الأجانب وتتجه نحو تدمير الدولة. وأعلن أن من ذلك اليوم فصاعدًا ستنحصر مهمة الخارجية فى تفسير سياسات وزارة الدفاع الأمنية إلى العالم. تلك العوامل أسهمت فى القضاء على

آخر أوهام القاهرة. ومع نهاية شهر سبتمبر عام ١٩٥٥، وقعت مصر على اتفاق تسليح مع تشيكوسلوفاكيا، هدف إلى تأمين بقائها ودفاعها عن نفسها.

فى أول أكتوبر

«أحضر تيدى [كوليك] برقية سرية من واشنطن. (شريكنا) وأعطى له اسم مشفر «بن» [كيرميت روزفلت فى وكالة المخابرات المركزية الأمريكية. . .] يصف الفوضى الشديدة التى سادت فى وزارة الخارجية الأمريكية تحت صدمة صفقة ناصر ـ التشيك «أى، الروس». (هنرى) بايرود وكل الآخرين الذين كانوا موالين لمساندة أمريكا لمصر، فقدوا النطق تمامًا. وأضاف قائلا: (إننا مندهشون لصمتكم). عندما سأل رجلنا عن معنى تلك الكلمات، وإن كان المتوقع منا أن نحارب؟، كانت الإجابة: (عندما تصل الأسلحة السوفييتية، وقمتم بضرب مصر، فلن يعترض أحد). (١ أكتوبر ١٩٥٥، ١١٨٢)

فى الاجتماع الوزارى فى ٣ أكتوبر، وصل بن جوريون لأن يعلن:

«إن حصلوا، بالفعل، على طائرات ميج. . فسوف أعيد قصفهم بالقنابل! إننا قادرون على القيام بذلك!» فهمت أنه قرأ البرقية التى جاءت من واشنطن. البذرة المتوحشة سقطت فى أرض خصبة. (٣ اكتوبر ١٩٥٥)

«إيسر [هاريل، رئيس شين بيت] توصل هو، أيضًا، إلى أن الولايات المتحدة تلمح لنا بأنه بالنسبة لهم، لدينا حرية الحركة وليباركنا الله إن تصرفنا بجرأة. . . الآن. . . الولايات المتحدة مهتمة بإسقاط نظام عبد الناصر. . . ولكنها لا تجرؤ، فى الوقت الحالى على استخدام وسائل استخدمتها فى إسقاط حكومة جاكوبو

اربينى اليسارية فى جواتيمالا [١٩٥٤]، ومصدق فى إيران [١٩٥٣]. . إنها تفضِّل أن تقوم إسرائيل بعملها.

«لهذا السبب، اقترح إيسر، جديا وبإلحاح. . . أن ننفِّذ خطتنا الخاصة باحتلال قطاع غزة، الآن. . . الوضع يتغير، وهناك أسباب أخرى من شأنها أن تحدد أنه (الوقت المناسب للتحرك) أولاً اكتشاف البترول بالقرب من القطاع. . . حمايته تتطلب السيطرة على القطاع ـ هذا وحده يستحق التعامل مع مسالة اللاجئين المثيرة للمشاكل. ثانيًا، خيانة مصر للغرب. هذه الحقيقة تستبعد خطر تدخل مسلح للقوى الكبرى ضدنا». (نفس التاريخ، ١١٨٦).

بعد عام واحد بالضبط، احتلت قوات ديان قطاع غزة، وسيناء، ومضيق تيران وانتظمت صفوفه على طول ساحل قناة السويس، لمتابعة مشهد القصف الجوى الفرنسى البريطانى للإسماعيلية والسويس، ترافقها عملية إنزال سريعة للقوات على منطقة القناة. قبل ستة أشهر، ونتيجة لقرار شخصى من بن جوريون، أقصت الحكومة شاريت. واستعاد الرجل العجوز رئاسة الحكومة، فى نوفمبر عام ١٩٥٥، بعد شهر واحد من «الضوء الأخضر» الأمريكى من أجل قيام إسرائيل بغزو مصر. نظمت حملة خبيثة هامسة تظهر وزير الخارجية وكأنه غير قادر على الحصول على الأسلحة الضرورية للدفاع عن إسرائيل. كان المناخ السائد حول خروج شاريت من الحكومة ذا معنى:

«. . . . [حول] مائدة [فى اجتماع الوزارة] جلسوا جميعًا فى صمت. لم يرفع أى من زملائى رأسه لينظر إلىَّ. لم يقف أى منهم لمصافحتى، رغم كل شئ. بدا وكأن كل قدراتهم الجديرة أصيبت بالشلل، وكأنه تم سحب حرية الحركة من أجسادهم، وانتزعت من قلوبهم حرية التعبير، وحرية الحركة المستقلة من ضمائرهم. جلسوا بثقل يحدقون فى صمتهم. وهكذا سرت بطول صالة الاجتماعات، وغادرت المكان». (١٨ يونيه ١٩٥٦).

فى الأشهر التالية فوضت الولايات المتحدة فرنسا لأن تحول إلى إسرائيل طائرات ميراج التى كانت مخصصة لمساعدة حلف الأطلنطى. فى وقت الهجوم على السويس، تظاهرت أمريكا بالدهشة، وحتى بالسخط. ولكنها فرقت، بوضوح بين انجلترا وفرنسا، المزاحمين فى الصراع بين القوى الإمبريالية من أجل النفوذ فى الشرق الأوسط، وإسرائيل. وطلب الرئيس إيزنهاور من بريطانيا وفرنسا الانسحاب الفورى من مصر خلال ساعات. ولكن انسحاب إسرائيل من غزة وسيناء تأجل أربعة أشهر، وتم بفضل الضغوط القوية التى مارسها الاتحاد السوفييتى الذى هدد بإغراق الغرب بتعقيدات حول السلام العالمى لم يشهد لها مثيلاً من قبل. إسرائيل، مع تفويض وكالة المخابرات المركزية الأمريكية فى جيبها، حصلت على الظروف المواتية لإقناع الرأى العام بـ «احتياجاتها الأمنية» فى تلك الحرب الإجرامية. وهكذا أصبحت هناك سابقة، التى تعنى أن الانسحاب من قطاع غزة وسيناء كان مسألة تكتيكية فحسب، كما اثبتت حرب ١٩٦٧، فيما بعد.

موسى شاريت، الملقب بالصهيونى المعتدل، افترض طوال حياته أن بقاء إسرائيل سيكون مستحيلاً بدون مساندة الغرب، واعتقد بأن ما يطلق عليه أخلاقيات الغرب، وكذلك مصالحه الموضوعية فى الشرق الأوسط، لم تكن لتسمح للغرب بمساندة دولة يهودية «تتصرف حسب قوانين الغاب»، وتصعِّد الإرهاب إلى مستوى المبدأ المقدس. وأجاب على ديفيد هاكوهين، زعيم المابای البارز، الذى أعلن أنه مقتنع بأن على الإسرائيليين أن يتصرفوا فى الشرق الأوسط وكأنهم مجانين، من أجل إرهاب العرب وابتزاز الغرب: إن كنا سنتصرف كمجانين، فسوف نعامل كمجانين ونوضع فى مصحة عقلية وننعزل عن العالم.

لكن خصومه أثبتوا خطأه، وبالتالى وجهوا ضربة مدمرة لشخصيته، وأيضًا للفرض نفسه بالصهيونية المعتدلة. ما أثبتوا صحته هو أن افتراضه العقلانية لم يكن وهمًا، فحسب، بل أيضًا، غير واقعى. فى التحليل الأخير، ترك الغرب،

وخاصة الولايات المتحدة، نفسه للخوف أو الابتزاز، وساند طموح إسرائيل الذى يكمن فيه جنون العظمة، لأن هناك بالفعل علاقة موضوعية من المشاركة فى الجريمة، ولأنه طالما دفعت مرة إلى العلانية، فقد أثبتت تلك المشاركة فى الجريمة بأنها قادرة على خدمة سياسات القوى الغربية فى المنطقة. [٢١] تماما مثل الصهيونية، التى قامت على أساس نزع الصفة الفلسطينية عن فلسطين وتهويدها، هى فى جوهرها عنصرية وغير أخلاقية، فالغرب فى الواقع، لم يكن بحاجة لدولة يهودية فى الشرق الأوسط لا تتصرف حسب قوانين الغابة، ولا يمكن الاعتماد على إرهابها كأداة أساسية لقمع شعوب المنطقة. كان هناك منطق حتمى ومتناسق فى تلك المعادلة المكتسبة حديثا، والتى سوف تحدد مسيرة الأحداث فى المستقبل:

«اننى أكرر لنفسى دائما، فى تلك الأيام: اعترف انك الخاسر! لقد أظهروا جسارة وديناميكية أكبر بكثير... لقد لعبوا بالنار، وكسبوا. اعترف بأن البيان النهائى لحرب سيناء إيجابى. باستثناء التقييمات الأخلاقية، فإن أهمية إسرائيل السياسية فى العالم صعدت بشكل هائل... وأنت بقيت وحيدا. معك فقط ابنك كوبى. الرأى العام، حتى الرأى العام الذى كان يواليك، لا يشاركك موقفك. على العكس... الرأى العام اليوم تحول حتى ضد «أساتذته» ومرارته ضد الانسحاب من سيناء [من سيناء وقطاع غزة] يتطور ليتحول إلى توجه من أجل تغيير التوازن السياسى فى هذه البلاد لصالح بيجن». (٤ أبريل ١٩٥٧).

* * *